موقف الإسلام من الحضارة الحديثة

- الآراء المختلفة .
- الشطر الأول من الحضارة .
- الشطر الثانى من الحضارة .
- ما يتعلق بالتشريع .

١ـ الآراء المختلفة

*** ما موقف المسلم من الحضارة الحديثة ؟.**

*** ما موقف علماء الإسلام من الحضارة الحديثة ؟.**

تتعدد الآراء فى ذلك : فهناك آراء هؤلاء الذين يرون أن نأخذ الحضارة الحديثة كاملة، دون نقص، تقريباً . .

ومنذ عهد ـ ليس ببعيد ـ وقف أحد كبار المستشرقين فى ندوة جمعت بين كبار رجال الفكر وكبار رجال الدين، وأعلن : لِمَ نتنكَّر للحضارة الحديثة وقد ركبنا منها الطائرات واستعملنا فوائدها فى كثير من الأجواء، وفى كثير من الحالات، فَلِمَ نتنكَّر لها فى غير ذلك ؟ . .

يجب علينا ـ عرفاناً بالجميل ـ أن نأخذ الحضارة الحديثة ككُلٍّ . نأخذها بما لها وما عليها .

وليس هذا رأى هذا المفكر وحده وإنما هو رأى طائفة كبيرة فى الشرق تدعو إلى أخذ الحضارة الحديثة ككلٍّ دون استثناء شىء منها .

إن الحضارة الحديثة ـ فى رأيهم ـ حضارة متكاملة : مادةً ومعنًى، شكلاً وجوهراً، فلنأخذها ككُلٍّ .

ويعارض ـ هؤلاء ـ كثيرون يرفضون الحضارة الحديثة جملةً، وهذا الرفض قد يكون كثيراً فى الأفراد، بيد أن بعض الدول

تبنَّته أيضاً ؛ حاولت بعض الدول فى الماضى أن ترفض الحضارة الحديثة كليةً، وأن تغلق فى وجهها الأبواب . . ولم تُوَفَّق الدول ولم يُوفَّق الأفراد أيضاً، فيما يتعلَّق بهذه المحاولة .

والرأى الثالث: يرى أن علينا أن نأخذ الحضارة المادية ، أما الحضارة النظرية فإننا نأخذ منها الصالح ، ونترك منها غير الصالح .

وهذا الرأى يبدو أنه رأى الأغلبية .

هذه هى مجموعة الآراء فيما يتعلق بالموضوع ، بل هى مجموعة الاحتمالات العقلية فى ذلك .

ومع هذا فإننى ـ أنا شخصياً ـ لم أرْتَضِ ـ بعدُ ـ رأياً . .

أما فيما يتعلق بأخذ الحضارة كلاً لا يتجزأ فأظن أن المسألة فى الجو الإيمانى وفى الجو الإسلامى السليم لا تحتاج إلى مناقشة كثيرة .

هذه الحضارة الأوربية فيها الكثير مما يخالف المبادئ الإيمانية والمبادئ الإسلامية . . فلا يتأتى أن يسود رأى كهذا فى الجو الإسلامى .

أما فيما يتعلق برفضها ككلٍّ فإن هذا ـ واقعياً ـ لم يتحقق لا فى الأفراد ، ولا فى الجماعات ، ولا فى الدول ، ولا فى الأقطار ، أيّاً كانت .

ليس هناك قُطْرٌ لم يَسْتَفِدْ من الحضارة الحديثة، وليس هناك إنسان لم يستفد من الحَضارة الحديثة: الإنسان، والقُطر، والأقطار... بل إن بنى آدم كلهم قد استفادوا من هذه الحضارة الحديثة، فلا يتأتَّى - قَطُّ - أن يسود الرأى برفض الحضارة الحديثة كليةً.. وهذه الفكرة لم تتحقق فى الواقع.

ويأتى **الرأى الوسط**، الرأى الوسط الذى ساد ويسود فى كثير من الأوساط، والذى يبدو لكثير من الناس أنه الرأى الصحيح، نأخذ من الحضارة الحديثة الصالح، ونترك من الحضارة الحديثة الضار والفاسد.

وبكلمات بسيطة يمكننا أن نرى أن هذا الرأى فاسد أيضاً، إذ يعتمد على الفكر، على العقل، على الإنسان.. دون ملاحظة للدين. إذا قلنا بأخذ الصالح، فما هو الصالح؟.. وفى رأى مَنْ؟..

إن الصالح يختلف من إنسان إلى آخر..

إذا قلت مثلاً: **٦٪ فائدة فى البنوك**، ثم تساءلت: **أهذا صالح أم غير صالح؟..**

يقول لك كثير من الناس بحسب عقولهم وأفكارهم وآرائهم، يقولون لك إنه لا بأس بستة فى المائة فائدة فى البنوك.. ويرفض ذلك آخرون.

فهل ٦٪ فائدة فى البنوك: صالح أخذها أم ليس بصالح؟..

يختلف الناس . .

ونأتى إلى مسائل أخرى متحدثين بأسلوب العقل لا بأسلوب الدين . . ونقول:

ـ شُرْب قليل من الخمر : هل هو صالح أم ليس بصالح ؟..

وستجد ـ لا محالة ـ من يقول إنه لا بأس بشرب قليل من الخمر .

ـ والاستحمام على الشواطئ . . هل هو صالح أم ليس بصالح ؟..

ـ هل نأخذه من الحضارة الغربية أم لا نأخذه من الحضارة الغربية ؟..

ستجد أيضاً أصحاب الأهواء الشيطانية ، وأصحاب الآراء الجنسية يقولون لك إن هذا صالح ؛ فالجسم صحته تتوافر فى ضوء الشمس ، ويستفيد من الفيتامينات التى فى إشعاع ضوئها!! . .

هذه القضايا ـ وكثير غيرها مما لا يقرُّها الدين ـ ستجد لها أتباعاً يقرُّونها ، من هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم ، وستجد من يقول إن ذلك صالح .

إذا أخذنا الناحية الصالحة فى الحضارة الحديثة ورفضنا الناحية غير الصالحة : فإن الرأى لا يستقيم ، لأن الناس يختلفون فيه

اختلافاً كبيراً، ولا يتأتَّى ـ مطلقاً ـ التحديد: تحديد الصالح وتحديد غير الصالح، لا يتأتى الاتفاق على التحديد ما دمنا فى مجال العقل فحسب، ما دامت المسألة آخذة وضعها العقلى الفكرى فقط.

* **ما المَخْرَج ـ إذن ـ من هذا ؟..**

* **ما هو ـ إذن ـ موقفنا من « الحضارة الحديثة » إذا كنا لا نقبلها ولا نرفضها ولا نقبل التوسط فيها ؟..**

وأريد أن آخذ الآن فى إبداء رأيى الشخصى، فيما يتعلق بالموضوع، ونحن فيما يتعلق بمجال الحضارة الحديثة نرى كما يرى غيرنا، والآراء فى ذلك لا تختلف ـ تقريباً ـ فى أن **الحضارة الحديثة تنقسم إلى قسمين: المادى، والثقافى..**

* * *

٢ـ عن الشطر الأول
من الحضارة: الشّطر المادى

القسم المادى: قسم المعامل، والمصانع، قسم الطب، قسم الكيمياء، قسم الطبيعة.. هذه الناحية المادية البَحْتَة التى تتأتَّى عن طريق الملاحظة والتى تحكمها التجربة..

هذه الناحية المادية من الحضارة الحديثة لا يتأتى لنا ـ قَطُّ ـ أن نقول إن أوربا ابتدعتها ابتداعاً، أو اخترعتها اختراعاً..

وهذه الناحية نفسها ـ الناحية المادية ـ لها جانبان: **جانب المنهج، وجانب الموضوع.**

أما فيما يتعلق بجانب المنهج فإنه **منهج الاستقراء**، وهو منهج تَتَبُّع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية.

هذا **المنهج الاستقرائى** ـ أو المنهج العلمى، أو منهج السمع والبصر، أى: **منهج الملاحظة** ـ هو **المنهج الإسلامى**.. لقد سار عليه النبى ﷺ، وسار عليه المسلمون قبل أن تنشأ الحضارة الأوربية:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾(١).

السمع والبصر هما أسَاسَا الملاحظة والتجربة، أو عنهما تنشأ الملاحظة والتجربة.

---

(١) سورة الإسراء: ٣٦.

عدم اتِّباع الظن، والسير وراء الملاحظة ووراء التجربة.. هذا منهج الإسلام، اتخذه المسلمون منذ زمن بعيد، وقد اعترف الغربيون أنفسهم بأن «الإسلام» هو الذى بدأ بوضع «المنهج التجريبى»، واعترفوا بأن روجر بيكون، الذى يعتبر فى أوربا المؤسِّس الأول للمنهج التجريبى، اعترفوا بأنه أخذه عن العرب، وبأنه لم يكن إلا تلميذاً من تلاميذ العرب، لم يكن إلا طالباً فى مدرسة العرب، اعترفوا بهذا صراحة..

يقول أحد كُتَّابهم فيما يتعلق بالمنهج الخاص بالتجربة، بمنهج الملاحظة الذى بُنيت عليه الحضارة المادية الحديثة، وهو الأستاذ «بريفولت» فى كتابه «بناء الإنسانية»:

«ليس لروجر بيكون - ولا لفرانسيس بيكون الذى جاء من بعده - الحق فى أن يُنسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى، فلم يكن (روجر بيكون) إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية، وهو نفسه لم يملَّ - قَطُّ - من التصريح بأن تعلُّم معاصريه - فى أوربا - اللغة العربية وعلوم العرب؛ هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقَّة»..

ويقول فى مكان آخر من كتابه:

«ولقد كان (العلم) أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث»..

ويقول أيضاً:

« ولم يكن (العلم العربى) وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة .. بل إن مؤثرات كثيرة من الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية ».

ويستفيض المؤلف فيما يتعلق بما للعرب - وبما للمنهج العربى - من أثر فيما يتعلق بالحضارة الحديثة . .

لا أريد أن أطيل فى قراءة نصوصه ، وهى كثيرة ، كلها تثبت أن هذا المنهج التجريبى إنما هو المنهج الذى قامت عليه الحضارة العربية ، وأن أوربا إنما أخذته من العرب ، ولم تبتدعه ابتداعاً ، ولم تكتشفه اكتشافاً .

هذا فيما يتعلق بالمنهج . . أما فيما يتعلق بالموضوع ، فإن المؤلف الذى ألّف هذا الكتاب والذى تحدثنا عن بعض آرائه يقول فى صراحة لا لبس فيها :

« موضوعاته ، إنه ليس مديناً فى المنهج فحسب ، وإنما فى الموضوعات أيضاً ».

ومما هو معروف أنه كان فى الحضارة الإسلامية أفذاذ فيما يتعلق بالعلم الطبيعى . . كان هناك «**ابن الهيثم**» وكتابه فى البصريات وفى الأضواء . .

ويرى كثير من المؤرخين للحضارة الأوربية أن كتاب بيكون نفسه فى الحرارة والضوء ما هو إلا نسخة من كتاب ابن الهيثم فى البصريات . .

كان عندنا ابن الهيثم . . وكان عندنا **الرازى وابن سينا** فى الطب، وكان عندنا **جابر بن حيان** فيما يتعلق بالكيمياء ، وكان عندنا **الكندى** فيما يتعلق بالرياضيات . .

كان عندنا كل هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين تعترف لهم أوربا بالتفوق ـ حتى الآن ـ فيما يتعلق بمنهجهم التجريبى القائم على الملاحظة وعلى التجربة .

وفيما يتعلق بالموضوعات التى تطرَّقوا إليها واستنتجوا منها النتائج التى لا تزال لها قيمتها حتى الآن .

هذا الموضوع ـ موضوع الطبيعة ـ إذا أردنا التعبير الإسلامى عنه، إنه على حد الكلمة التى أطلقها الشيخ محمد عبده، وهى الكلمة التى تعبِّر التعبير الصحيح الإسلامى : **سُنَنُ اللَّه الكونيَّة**.

فالطبيعة، وقوانينها، واكتشافاتها، وموضوعاتها ، يكون البحث فيها إنما هو البحث فى سنن الله الكونية ؛ واكتشاف قوانينها إنما هو اكتشاف لسنن الله الكونية .

هذا «الجانب المادى» من الحضارة، إنه جانب إسلامى فى موضوعه، جانب إسلامى فى منهجه .

إنه ـ منهجاً وموضوعاً ـ ناحية إسلامية .

على أن الإسلام قد حَثَّنا على كشف سُنَّة الطبيعة . .

إن الله سبحانه وتعالى يمنُّ علينا فى القرآن بأنه سَخَّر لنا البحار والأنهار، وسَخَّر لنا الأرض، وسَخَّر لنا السماء، وسَخَّر لنا

الكواكب، وسَخَّر لنا القمر، وسَخَّر لنا الشمس، وسخَّر لنا الكون كله . .

لقد سخَّره للإنسان وهو بهذا الامتنان يطلب من الإنسان أن يجوب الفضاء ، وأن يغوص فى الماء ، وأن يخترق كل المُعمَّيات فى هذا الكون حتى يتسنَّى له الإيمان والإقرار ـ فى خضوع ، وفى خشوع ـ بعظمة الله العظيمة ولهيمنته هذه التى لا يندُّ عنها شىء فى هذا العالم المسخَّر .

تتبُّع آيات الله سبحانه فى الأنفس وفى الآفاق ، كل هذا دعوة إسلامية . . وتتبُّع آيات الله ، والتسخير ؛ لا يتأتى إلا عن طريق الملاحظة وعن طريق التجربة ، المنهج التجريبى ، المنهج الحديث ، هذا هو منهج الإسلام . .

ويدعونا الإسلام أيضاً إلى أن نكون فى هذا الجانب المادى أقوى ما نكون :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(١) .

والاستطاعة لا تكاد تُحَدُّ ، وكلما وصل الإنسان إلى حد من الاستطاعة تفتحت أمامه آفاق استطاعات جديدة يجب عليه أن يَلجَها ، فهو فى كل آونة مُتَرَقٍّ فى عالم الطبيعة ، وهو فى كل آونة متتبِّعٌ لهذه القوانين ؛ مُتَرَقٍّ فيها ، حتى يظل دائماً فى القمة ، حتى يكون مركزه ـ دائماً وباستمرار ـ فى القمة من القوة المادية .

---

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .

وإذا كان المسلمون قد تأخروا فى هذا الجانب فليس ذلك ذنب القرآن ، ولا ذنب الإسلام ، وإنما هو ذنب تكاسلهم وخمولهم .

وهم بهذا التأخير آثمون إسلامياً، إنهم آثمون فى نظر الإسلام وفى نظر القرآن الكريم، فهم أصحاب دعوة ، والقرآن أعدَّهم - من قديم - لهذه الدعوة .

هم أصحاب رسالة، وأصحاب الرسالات إن لم تكن عندهم القوة القوية، إن لم يكن عندهم السلطان المسيطر، إن لم تكن عندهم السيطرة المتحكمة من أجل الخير، ومن أجل العدل، ومن أجل الحق . . إن لم يكن عندهم هذا فإن رسالتهم تستمر حبراً على ورق . .

ولم يُرد الإسلام أن تكون الرسالة الإسلامية ، أو أن تستمر الرسالة الإسلامية حبراً على ورق . .

فالإسلام يدعو المسلمين إلى أن يكونوا أقوى دولة فى العالم، فإذا ما ضعفوا كانوا آثمين (فى نظر الإسلام) . . كانوا آثمين، وكانوا مقصِّرين فى حق رسالتهم التى كلَّفهم الله سبحانه وتعالى بها .

إنها آخر الرسالات . . إنها الرسالة الأبدية . . إنها الرسالة الدائمة، ولابد من قوة دائمة فى هذا العالم تسندها . . . وإذا لم

تكن هذه القوة فلن يكون لهذه الرسالة ـ من التأثير ومن النفوذ ـ ما يريده الإسلام منها ومن أصحابها.

الجانب المادى ـ إذن ـ جانب الإسلام، وما علينا إلا متابعة الإسلام فى هذا الطريق بكل وسيلة ممكنة، وبكل طريقة تتيسَّر.

ولا يقال ـ إذن ـ حينما نسير فى الحضارة المادية مكتشفين ومخترعين، ومتبيِّنين الاكتشافات والاختراعات ـ إننا أخذنا عن الحضارة الأوربية، وإنما يقال: إننا تَابَعْنَا الخطوات التى تابعها وسار فيها أسلافُنا.. وإذا كنا فى هذا المجال نستعين بهذا أو ذاك.. فإن هذه الاستعانة ليس معناها أخذٌ من حضارة، لأن هذا الجانب لا لون له، أى أن الرقىَّ المادىَّ لا لون له.

لا يقال: هذه الكيمياء ألمانية، أو فرنسية، أو إنجليزية..

وإنما هى الكيمياء، أينما كانت، وأينما وُجدت، لا تتسم بلون..

فإذا استعنَّا ـ بهذا أو بذاك ـ فى سبيل متابعة أسلافنا فيما يتعلق بهذا المجال فلسنا بتابعين، وإنما نحن نواصل هذه المجهودات التى بدأها أسلافنا، وانقطعنا عنها فترة، ونريد أن نعود إليها من جديد.

* * *

٣ـ الشطر الثانى
من الحضارة: الشّطر الثقافى

ويأتى بعد ذلك القسم الآخر من أقسام الحضارة الأوربية وهو القسم الثقافى . .

وهذا القسم الثقافى نبتدئ فيه بشىء من تاريخ الإسلام نفسه، أو ببعض الحوادث التى حدثت فى ربوع الإسلام :

فمن أول هذه الحوادث التى نلاحظها : ما رواه الحافظ « أبو يعلى» من أن الرسول ﷺ رأى مرةً ورقةً فى يد سيدنا عمر، فقال له : « **ما هذه الورقة؟** » .

فقال سيدنا عمر : إنها من التوراة . وغضب الرسول ﷺ، وقال :

« **لَوْ كانَ مُوسَى حَيّاً ما وَسِعَهُ إلا اتِّبَاعِى** » .

تعبير صادق : ما حَلَّ له إلا اتباعه .

ونسير مع التاريخ، فنرى سيدنا عمر بن عبد العزيز يرى أن حاجة المسلمين إلى الطب حاجة ماسَّة لكنه أخذ يتحدث إلى نفسه :

ـ هل ذلك مُباح ؟ . .

ـ هل من المباح أن يُترجمَ كتاباً من كتب الطب ؟ . .

ـ هل يجوز له أن يفعل ذلك ؟ . .

ـ هل يجوز له أن يعمل عملاً لم يعمله رسول الله ﷺ ؟ . .

ويستخير الله فى ذلك، وينتهى به الأمر إلى أن يترجم كتاب الطب، ولم يَرَ بأساً فى ذلك . .

وكتاب الطب : كتاب من كتب الحضارة المادية، أو كتاب من الكتب ذات الطابع المادى، ولا بأس أن يُترجَم كتاب من هذا النسق، أو أن يتابع، أو أن يقتبس منه، أو أن يؤخذ فى الجو الإسلامى من مبادئه .

وتسير الحياة بالمسلمين هادئة فى جوانبها الحضارية إلى أن يأتى العصر العباسى وتبدأ الترجمة .

والترجمة لم يعترض عليها معترضٌ ؛ فيما يتعلق بجانب الطب، وبجانب الطبيعة، أو بجانب الكيمياء . .

ولكن المسلمين ـ فى أول العهد العباسى ـ كانوا نافرين كل النفور من أن تترجم كتب ما وراء الطبيعة اليونانية، فإن ما وراء الطبيعة تعنى الأبحاث التى تتصل بالعقيدة .

وقال المسلمون وأجمعوا على أنه إذا كانت عقيدة اليونان حقاً فعندنا ما هو أحقُّ منها ؛ وهو القرآن الكريم ، وهو بالأسلوب الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . .

وإذا كانت باطلاً فإننا فى غنًى عنها . . وكذلك كان شأنهم وموقفهم فيما يتعلق بالأخلاق . . كانوا يعتزون بأخلاقهم،

ويعتزون بعصبيتهم لعقيدتهم وأخلاقهم المنزَّلة المُوحَاة . . إلى درجة أنهم لا يرون أن يكون هناك أىُّ كتاب ، أو رأى ، يقوم بجوار هذه المبادئ الإلهية الإسلامية ، سواء أكانت عقيدة أم أخلاقاً . . . ولم يترجموا كتب الأخلاق إلى أن جاء «المأمون» . .

والمأمون - بتربيته الفارسية - كان عنده من التهاون القليل ، أو الكثير ، ولم يكن عنده من التحرُّج ما كان عند غيره ، فأمر بترجمة الكتب التى تتصل بما وراء الطبيعة ، والكتب التى تتصل بالأخلاق . . وقام بترجمة هذا على الرغم من النفور العام من المسلمين المؤمنين المتدينين .

وتُرجمت كتب ما وراء الطبيعة ، وتُرجمت كتب الأخلاق ، على الرغم - أو على نُفور - من هؤلاء الذين يرون أن العقيدة الإسلامية يجب ألاَّ يكونَ بجوارها شىءٌ آخر ، وأن الأخلاق الإسلامية يجب أن تكون مستقلة لا يكون بجوارها شىءٌ ، ولا تُدَنَّس ، ولا تتلوَّث بما يُتوهَّم أنه حَقٌّ بجانب الحق .

لكن الترجمة - ترجمة ما وراء الطبيعة - أخذت مجالها ، وترجمة الأخلاق أخذت مجالها ، بل أصبحت مألوفة ، وأصبحت وكأنها شىء عادىٌّ . . وليست ترجمة الأخلاق ، وليست ترجمة ما وراء الطبيعة أقل شأناً - فيما يتعلق بالجو الإسلامى الصحيح - من الورقة التى كانت بيد سيدنا عمر .

إن العقيدة الإسلامية، والأخلاق الإسلامية، هى التى تكوِّن ذاتية المسلم. . أى أن ذاتية الأمة الإسلامية لا تتكوَّن بكيمياء أمريكية لأن الكيمياء ـ كما قلنا ـ لا لون لها، ولا تتكون بطبيعة ألمانية أو إنجليزية أو ... لأن الطبيعة لا لون لها.

حقيقة أنه لابد من الكيمياء، ولابد من الطبيعة ـ كما قلنا ـ للقوة، وللغَلَبة، وللسلطان، ولتأدية الرسالة من أجل الحق والخير.

إن الذى يكوِّن ذاتية الأمة إنما هو اللون الثقافى فيها، وقد رأينا موقف الرسول ﷺ وموقف المسلمين الأُوَل منه. .

وعلى أى وضع، إذا نظرنا إلى هذه الثقافة فى نفسها ـ الثقافة النظرية ـ وهذا هو الجانب الذى أهتم به كثيراً، وأريد أن أنبِّه الأذهان من جديد إلى أننى أتحدث عن ثقافة لا تتصل بالملاحظة ولا بالتجربة؛ أى أنها ثقافة ليست بحسِّيَّة.

أتحدث ـ إذن ـ عن الثقافة النظرية البَحْتَة، عن الفلسفة، عن الأخلاق، عن هذا الجانب فى «علم الاجتماع» الذى لا يتصل بالملاحظة والتجربة، عن هذا الجانب فى «علم النفس» الذى لا يتصل بالملاحظة والتجربة. . عن هذه الجوانب فى أى «علم»، وفى أى «موضوع» . . الجوانب التى لا تتصل بـ «التجربة» و«الملاحظة».

إن التجربة تتحكَّم فتكون فيصلاً فيما يتعلق بالحق والخطأ، لكن المجالات النظرية البحتة ليس لها هذا الفيصل الذى يفرِّق بين الحق والباطل.

ما وراء الطبيعة مجالٌ نظرىٌّ بَحْتٌ، وهو يختلف من فرد إلى آخر. ويتعدد بعدد اختلاف الأفراد.. إذا جئنا للجو اليونانى فإنَّا نجد أن أفلاطون فيما يتعلق بتصوُّر (الإله) يختلف عن أرسطو، وتصوُّر أرسطو يختلف عن تصوُّر الرواقيين، وتصوُّر الرواقيين يختلف عن تصوُّر أبيقور أو الأبيقوريين.

يصوِّر **أفلاطون** الإله على أنه مثالٌ للخير على رأس المُثُل، أو مثالٌ للجمال على رأس المُثُل..

ومع أن **أرسطو** من مدرسته فإنه يصوِّر الله سبحانه وتعالى بصورة أخرى.. ويرى أنه المحرِّك الأول، وهذا المحرِّك الأول ليس هو الذى يحرِّك العالم، وليس هو الذى خَلَق العالم، وليس هو الذى صوَّر العالم وكوَّنه، بل إنه لا يعلم عن العالم شيئاً مطلقاً.. لا يعلم عن العالم شيئاً، يستوى فى ذلك التافه من أمره والعظيم منه.. إنه لا يعلم حتى مجرد وجود العالم.

وتأتى **الرواقية**؛ فترى الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمتزج بالكون امتزاجاً كاملاً، فهو سرُّه، وهو فى كل ذرة من ذراته، وفى كل خلية من خلاياه.

ويأتى **أبيقور** . . ويقول : ليس هناك شيء اسمه «الله» . . وليس هناك إله .

وتختلف هذه المدارس باختلاف أفرادها وباختلاف رؤسائها . . وقبل أن نستمر فى شرح موضوع هذه الثقافة النظرية البحتة ، قبل أن نستمر فيها طويلاً . . أريد أن أتحدث عن قصة لها مغزاها العميق كى تكون أمام أنظارنا حينما نضرب الأمثال فيما بعد ، هذه القصة يرويها مؤرخو الفلسفة اليونانية :

اجتمع **سقراط** باثنين من **الفيثاغوريين** ـ من كبار فلاسفة «الفيثاغورية» ـ أحدهما اسمه «**سيمياس**» ، وكان من كبار الفلاسفة . . اجتمعوا يتناقشون فيما يتعلق بخلود الروح : هل هى باقية بعد الموت ؟ . . هل هى مستمرة ، أم أنها فانية ؟ . . هل الإنسان حينما يموت ، يموت مادةً وروحاً ، أم أنه يموت مادةً فقط وتبقى الروح ؟ . . وهل الروح خالدة ؟ . .

كانوا يتحدثون فى هذا الموضوع ، ويحاولون ـ ما استطاعوا ـ أن يقيموا الأدلة على خلود الروح ، على أنها باقية بعد الموت . . ثم تنتهى بهم الأدلة ، وينقطع بهم البرهان . .

يقول سيمياس لسقراط :

إن الموضوع ما زال فى حاجة إلى بحث أكثر ، ولكن هذا جهد العقل ، وهذا غاية ما يستطيعه العقل .

ويوافق سقراط ثم يقول متأسفاً :

إن العقل فى مجال ما وراء الطبيعة مثله مثل لوح من خشب ، يريد الإنسان أن يقطع به البحر فى يوم عاصف . أما مَثَلُ الدين بالنسبة لما وراء الطبيعة فإنه المركب الأمين لقطع البحر .

ويأسفون جميعاً على أنه لم ينزل دينٌ يحدِّد الموضوع تحديداً تاماً ، يحدِّد مسألة خلود الروح ، ويعترفون بأنه لو كان قد نزل دينٌ يحدِّدَ هذا الأمر فإنهم كانوا يستجيبون إليه ، ويؤمنون به ويستسلمون ، وتهدأ نفوسهم فيما يتعلق بهذا الأمر .

لا جدال أنَّ نقَاشَ العقل فى محيط ما وراء الطبيعة لوح من خشب لقطع البحر ، ولكنه - فى حقيقة الأمر - لوح من خشب فى كل علم نظرى ، لا مجال للتجربة ولا للملاحظة فيه .

وخُذْ أىَّ مادة من المواد النظرية ، خُذْ ما وراء الطبيعة ، خُذِ الأخلاق ، خُذِ التشريع ، خُذْ هذه النواحى الكثيرة المتعددة التى سُمِّيت بأسماء علوم مختلفة ، وهى كلها نظرية ، فإنك ستجد العقل دائماً هو لوح الخشب الذى لا يتأتى أن يقطع به الإنسان البحر ، مهما احتوى ، ومهما كان يحاول أن ينجو بهذا اللوح .

والفلسفة فيما يتعلق بالعالم الحديث ، كل فلاسفة العصر الحديث مختلفون على أنفسهم ، ليس بينهم فيلسوف واحد يتفق مع الآخر ، وإلا لما كان فى حاجة إلى أن يُنشئ فلسفة جديدة لو اتفق مع زميله .

ومعنى الفلسفة أنها ابتداع دين بجوار الدين أو عقيدة بجوار العقيدة . . كذلك الأمر فيما يتعلق بالأخلاق ، إنها على هذا النَّسَق ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالتشريع : إنه على هذا النَّسَق ، وإذا تُرك التشريع للعقل فسيكون هناك الاختلاف ، وإذا تُرك ما وراء الطبيعة للعقل فسيكون هناك الاختلاف أيضاً . .

والمَخْـرَج أن نصـدر ـ فى كل هذه الأمور ـ عن الدين ، ولا مجال لرأى آخر ، إذا أخلصنا . . لابد من أن نعتمد على الدين فى هذه المجالات الثلاث :

*** مجال ما وراء الطبيعة.**

*** مجال الأخلاق.**

*** مجال التشريع .**

هذه « المجالات » ثابتة فى الدين . . مستقرة . . لا تقبل التطور . . مجال العقيدة لا يقبل التطور ، العقيدة هى هى . .

لا تختلف العقيدة الدينية الإسلامية من بيئة إلى أخرى ، ولا من قُطر إلى آخـر ، ولا من زمن إلى زمن ، ولا من مكان إلى مكان . . ولا تختلف الأخلاق الإسلامية ـ أيضاً ـ من بيئة إلى أخرى ، ولا من مكان إلى مكان ، ولا من زمن إلى زمن ، فهى هى . .

وإذا كان الموقف على هذا النمط فى العقيدة والأخلاق ، أهو كذلك فيما يتعلق بالتشريع ؟..

* * *

٤ـ ما يتعلق بالتشريع

أما فيما يتعلق بالتشريع فإن كثيراً من الناس يعتقدون أن التشريع الإسلامى متطور، ولكن التشريع مبادئ ووسائل . . وقد يترك الإسلام بعض الوسائل غير محدَّدة، يتركها للزمن . . ولكن النتائج أو الغايات هى هى .

مثلاً : مبدأ الشورى، لم يحدد وسيلته الإسلام . . أى أن الشورى نفسها مبدأ إسلامى ثابت، ووسيلة الشورى لم يحددها الإسلام، وتركها للبيئات، وتركها للأزمان، يحددونها عن طريق البرلمان ، أو بأىٍّ طريقة أخرى . . يحددونها كيفما شاءوا .

لكن الغايات، النهايات، المبادئ ، القواعد . . إنها ثابتة .

ويتساءل كثير من الناس :

ـ وما شأن الاجتهاد إذن ؟ . .

والواقع أن هذا الجانب يضلُّ فيه كثير من الناس، أو يزلُّ فيه كثير من الناس .

الاجتهاد فى الإسلام معناه أن يحاول المجتهد ما استطاع، وأن يحاول ما أمكنه، وأن يربط بين حادثة حدثت جديدة، وبين قاعدة إسلامية موجودة . . أو أن يُدخل فى نطاق قاعدةٍ إسلاميةٍ عامةٍ حادثةً من الحوادث التى حدثت جديدة . .

فليس الاجتهاد - إذن - ابتداعاً، أو اختراعاً، أو تطوراً . . ليس فيه شيء من هذا القبيل، وإنما هو محاولة جاهدة، كادحة، دائبة، مستمرة، للوصول إلى ما كان عليه الرسول ﷺ، وما كان يمكن أن يكون رأى الرسول ﷺ لو كان الرسول موجوداً.

و« **إذا صَحَّ الحديثُ فهو مَذهبى** » قاعدة تنقض كل شبهة من الشبهات التى ترمى إلى أن الاجتهاد إنما هو ابتداع أو اختراع، أو هو شيء من هذا القبيل . .

فليس - إذن - فى الجانب الإسلامى تطور . . أقول هذا لأنه من أخطر الأمور على العقيدة الإسلامية، وعلى الجو الإسلامى، الفكرة التى تسود فى كثير من الأوساط، والتى هى سائدة فى الثقافة الأوربية الآن . . أعنى: فكرة «التطور»، وفكرة التطور تتناسب مع الثقافة فى أوربا.

والثقافة فى أوربا - الثقافة النظرية التى لا تتصل بالتجربة أو بالملاحظة - الثقافة النظرية فى أوربا متطورة، وهذا حقيقى . .

متطورة لأنها بشرية . . وكل ما هو بشرى من نتاج العقل البشرى فإنما هو نِسْبِىٌّ، وهو - إذن - متطور، إنه نسبىٌّ متطوِّرٌ، وقد يكون هذا التَطَور تطوراً إلى القديم، لا تطوراً إلى شيء جديد . .

يعنى مثلاً: مذهب **الوجودية** الحالى الذى يقال إنه مذهب

جديد كل الجدة إنما هو مذهب **السوفسطائية** القديم، لا أكثر ولا أقل.

إنه المذهب الذى يرى أنه ليس هناك حقيقة مُطْلَقة.. وإنما الإنسان يكيِّف نفسه، ويوجِّه نفسه.. وهو ليس فى هذا إلا فرداً من الأفراد له رأيه الخاص ولذلك لا يفرض رأيه على الآخرين لأنه ليس هناك حقائق مطلقة.. فهو عودة إلى المذهب القديم - مذهب السوفسطائية القديم - المذهب الذى لَفَظَتْهُ كل البيئات السليمة..

ومذهب الوجودية - فى الحقيقة والواقع - تلفظه كل بيئة سليمة، وكل بيئة صحيحة.. إنه لا يسود إلا فى البيئات المريضة التى لا ترى وزناً للقيم الأخلاقية، ولا للدين، ولا للحقائق المطلقة..

وترى أن الإنسان يكوِّن نفسه من الألف إلى الياء مستقلاً عن التقاليد، وعن الدين، وعن الحقائق، وعن كل شىء فى المجتمع..

فكرة التطور نشأت مع **داروين**، وكانت لها شهرة قوية فى أوساط أوربا وفى أوساط الشرق، ولكن هذه الفكرة نفسها - باعتراف كل العلماء - فيها الفجوات التى تجعلها ظَنِّيَّة، لا يقينيَّة.. إنها فكرة ظنية لم تصبح يقيناً.. وكثير من العلماء هاجمها

وعارضها وأقام الأدلة على انهيارها . . ولكنها مع ذلك سادت في بعض الأوساط الشرقية، وأصبحنا الآن - وهذا هو الخطر الذى نحذر منه - نرى كتباً بأقلام المسلمين، وبأقلام المفكرين الكبار تقول بفكرة التطور وكأنها حقيقة موجودة . .

وما من شك فى أن هناك التطور المادى، لا ينكر ذلك أحد. هناك التطور من الفحم إلى وابور الغاز إلى البوتاجاز، وهناك التطور من السيارة إلى الطائرة . . . إلخ . . هناك التطور المادى، لا ينكر ذلك أحد إطلاقاً. ولكن هذا التطور المادى لا دخل له مطلقاً ولا شأن له مطلقاً بتطور العقل من حيث هو عقل الإنسان.

إن الانسان من حيث هو إنسان لم يتطور عقله من حيث هو عقل، لم يزد، لم يكن - مثلاً - عشر درجات ثم أصبح خمسين درجة وما شَاكَلَ ذلك . .

الإنسان لم يتطور إلى كائن آخر، إنه ما زال هو الإنسان الذى وُجد منذ عهد « آدم » إلى الآن . . ولكن من المؤسف أن بعض المفكرين الإسلاميين يسيرون فى الأمر وكأن «التطور» حقيقة واقعية، وكأن «التطور العقلى» حقيقة واقعة، وكأنه يقين مطلق، وفى هذا خطورة كبيرة.

أضرب مثلاً للخطورة حينما تدخل فكرة التطور فى مسائل الدين :

إن أحد كبار المفكرين الإسلاميين ـ وله شهرة ذائعة فى الجو الإسلامى ـ حينما أراد أن يفسر القرآن !! وحين أراد أن يفسر قصة سيدنا آدم وخَلْق سيدنا آدم، وأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الملائكة بالسجود له . . وكان فى ذهنه فكرة « التطور » . . وأن الإنسانية بدأت بكذا وكذا . . وأن آدم ليس هو أول الإنسانية مباشرة، يعنى أن الإنسانية لم تبدأ بآدم مباشرة، كان فى ذهنه كل ذلك، فلما جاء يفسر القرآن ـ مباشرةً ـ ويفسر قصة آدم، فسَّرها على أنها تصوير، مجرد تصوير، مجرد تمثيل، مجرد قصة . . لماذا ؟ . . مجرد تمثيل . . لماذا ؟ . . مجرد تصوير . . لماذا ؟ . . ليخرج من فكرة التطور، وحتى لا يلتزم بقضية أن «آدم» إنما هو أول البشرية حقاً، أول البشرية مخلوقاً خَلْقاً جديداً، مُنْشَأً من الله سبحانه وتعالى، سَوَّاه بيديه، ونفخ فيه من روحه . .

وإذا كانت قصة آدم تمثيلاً، وإذا كانت تصويراً، فلا يبقى شىء فى القرآن لا يمكن أن يُؤَوَّل .

وإذا أوَّلنا قصة آدم، إذا أوَّلنا قصة سجود الملائكة، إذا أوَّلنا كل ذلك ـ وقد ذُكرت فى القرآن عدة مرات ـ إذا أوَّلناها فإنه لا يبقى فى القرآن أو فى الإسلام شىء لا يمكن أن يُؤَوَّل . . وفى تأويل كل شىء القضاء على الإسلام .

ـ وعلى هذا فـفكرة « التطور » يجب ألاَّ تدخل فى المحيط

الفكرى الدينى للمسلمين، وكل مَنْ أدخلها فى المحيط الفكرى الدينى الإسلامى إنما يضر الإسلام ويكون خطراً على الإسلام أكثر من العدو العاقل . . هذا الصديق الجاهل يكون خطراً على الإسلام أكثر من العدو العاقل، وهذا مَثَل ـ مجرد مثل ـ من الأمثلة الكثيرة .

وعلى كل حال فإن الكتب الحديثة تجدها دائماً قائلة بفكرة التطور، وأن الإنسانية تطورت، وأنها . . . إلى آخر كل هذه النواحى التى إذا أدخلناها فى محيط العقيدة، أو أدخلناها فى محيط الأخلاق، أو أدخلناها فى محيط الدين، فإنها تجعل من الدين مجموعة من المبادئ النسبيَّة، ومعنى مجموعة من المبادئ النسبيَّة : أنها ليست حقائق مطلقة، وأنها يمكن أن تتطور وتتطور إلى اللانهاية . . ويأتى يوم من الأيام وقد انفصلنا عن الدين وعن المبادئ الدينية . . الانفصال الكامل .

فكرة التطور ـ فيما يتعلق بالحضارة الحديثة ـ قام بها داروين، ويعترف اليهود أو يعترف الصهيونيون فى كتابهم وفى مبادئهم «بروتوكولات حُكماء صهيون» . . يعترفون بأنهم هم الذين وضعوا داروين فى الأفق، على المنصَّة، وهم الذين أعلنوا عنه، وهم الذين أذاعوا فكرته، وهم الذين حَبَّذوها، وهم الذين نشروها فى كل مكان، وذلك لأنها تقوِّض الأديان من أساسها، وهى مع ذلك ـ كما قلنا ـ فكرة ظنية، وكلما تقادم الزمن بها وكلما تقادم العهد بها؛ ازداد الشك فيها .

الثقافة الحديثة، أو الحضارة الحديثة، فى جانبها الثقافى، إذا رحبنا بها فإن ذلك يُعَدُّ من الحُجُب التى تحجب شيئاً فشيئاً الفكرة الإسلامية..

وإنه لمن المعقول أننا ـ وعندنا القرآن وعندنا السُّنَّة، وقد طُبِّق القرآن وطُبِّقت السُّنَّة فكان ازدهار الأمة الإسلامية، من المعقول أن نصدر فى ثقافتنا عن ذاتية إسلامية، عن قرآن وسُنَّة.. وكل هذا البريق فيما يتعلق بالحضارة الحديثة فى جانبها الثقافى يجب ألاَّ يخدعنا..

مثلاً ـ الحرية والمساواة :

من الغريب أن الأوربيين أنفسهم من كبار المفكرين فى أوربا نفسها يرون أن هذين المبدأين متعارضان..

يرون أنه إذا وُجدت «الحرية» فلا مساواة.. وإذا وجدت «المساواة» فلا حرية.

يرون التعارض فى المبدأين، وأنهما لا يجتمعان، لأنه إذا وُجدت المساواة فكيف تتأتَّى أن توجد الحرية، وإذا فُرضت المساواة فرضاً فكيف تتأتَّى أن توجد الحرية، وإذا فُرضت الحرية فرضاً فكيف تتأتَّى أن توجد المساواة..

المبدأ الإسلامى: الأخوَّة.. مبدأ سليم لا غبار عليه، ولا اعتراض عليه.. يجب ألاَّ نضع بجوار الأخوَّة مبادئ متعارضة يراها الأوربيون أنفسهم متعارضة، ويلاحظون هذا التعارض،

ويرفضون أن تكون هذه المبادئ بجوار بعضها، تكون وحدة، وتكون شعاراً، ثم نأتى نحن فنأخذها..

ـ ثم إذا جئت إلى المساواة وقلت: أين هى؟..

إنها لا تتأتَّى أن توجد مطلقة فى قُطر من الأقطار، ولا فى بلد من البلاد، ولا فى أسرة من الأسر..

ويقولون: ولكن نحن لا نقصد المساواة المطلقة، وإنما نقصد المساواة فى الحقوق والواجبات.

إذا قلنا إن الشعار الإنسانى «لا مساواة إلا فيما يتعلق بالحقوق والواجبات» كنا ـ إذن ـ صادقين، ويكون هذا أصدق.. يكون هذا أصدق لأن مبدأ اللا مساواة هو المبدأ السائد، وهو المبدأ الإنسانى السائد فيما عدا الحقوق والواجبات.

إن اللا مساواة هى الموجودة فيما عدا الحقوق والواجبات، بل الحقوق والواجبات فى نفسها ليست فيها مساواة.

ـ ثم إذا جئت إلى الحرية، أين هى ؟ ..

إن الإنسان ليس حُرّاً فى اختيار الاسم الذى يتسمَّى به، ولا فى اختيار اللغة، ولا فى اختيار نمط الملابس، ولا فى اختيار طريقة الركوب، وطريقة السير.. ثم إنه ليس حراً فيما يتعلق باختيار الطريق الذى اتبعه فيما يتعلق بالمدرسة، وفيما يتعلق بالتربية... إلخ.

لست حراً فى طريقة الأكل، ولا فى طريقة الشرب، ولا فى شىء من هذا . . إذا قلت إن تسعمائة وتسعة وتسعين فى الألف من الأشياء لست حراً فيها تكون صادقاً .

إذا قلت أو فسَّرت الحرية بأنها «الحرية فيما لا يضر الغير» أيضاً لا تكون الفكرة صادقة . .

الحرية فيما لا يضر الغير أيضاً ليست موجودة ، لنفرض مثلاً أن شخصاً من الأشخاص ـ وليكن طالب علم مثلاً ـ ذهب إلى الكلية وهو ساتر للعورة فقط ـ يعنى من الركبة إلى السُّرَّة ـ وذهب إلى الكلية على هذا النمط . . إنه ـ دينياً ـ لا غبار عليه، وهذا لا يضر شخصاً آخر، ولكنه مع ذلك لا توجد فيه هو نفسه الجرأة لأن يفعل ذلك، فهو ليس بِحُرٍّ فى أمر يبيحه الدين، ولا يضرُّ الآخرين . .

أى أن الحرية والمساواة كلمات جوفاء، فى حقيقة الأمر، لا معنَى لها معنًى حقيقياً محدداً فيما يتعلق بالأفهام . .

إن كل كلمة منهما لا تَصْدُق وليس لها حقيقة واقعية، ومع ذلك نُشيد بهما كأنهما من اختراعات الغرب الكبرى التى لها المثل الأعلى فيما يتعلق بهذه الحضارة الغربية الحديثة . .

إن الحضارة الغربية الحديثة فيها من أمثال ذلك أشياء كثيرة يجب أن نتنبه لها . .

ومن هذه الأشياء - فى الجانب الثقافى أيضاً - ما يقال من أن «العلم للعلم»، أو «الأدب للأدب»، أو «الفن للفن». . كل هذه لها خطورتها فيما يتعلق بالأجواء الإيمانية. .

فى جو الإيمان لا يتأتى مطلقاً أن يكون «الأدب للأدب»، وإنما الأدب للأخلاق، للفضيلة، لترقية الفِطَر، لإثارة الشعور الدينى الكريم. . لكل هذه المعانى. . أما فكرة «الأدب للأدب» فإنه لا يستسيغها مطلقاً عقل أو قلب مؤمن.

كذلك فيما يتعلق بالفن للفن. . «الفن للفن» معناه أنك ترسم الصورة العارية كما شئت، أو ترسم الصورة التى تثير الغرائز كما شئت. . «الفن للفن» أيضاً فكرة لا يتأتى لمؤمن أن يقول بها، أو أن يمتدحها، أو أن يتبناها شعاراً له.

هذه النواحى كلها، وكثير غيرها - فيما يتعلق بالثقافة الغربية الحديثة - الثقافة النظرية - يجب أن نكون بعيدين عنها كل البعد، وأن نتبع فى هذا الجانب الإسلامى وحده، نجعله الأساس، نجعله المصدر الموجِّه.

إن هذه الآراء الثقافية النظرية الحديثة هى - كما يقول أحد كبار المفكرين فى أوربا - مثلها كمثل «الموضة» وأزياء النساء؛ تتبدَّل من عام إلى عام، ومن فترة إلى فترة. .

إن «موضة» هذا العام فى علم النفس - مثلاً - هى كذا، هى نظرية فلان، أو هى نظرية فلان. . و«الموضة» فى العام المقبل -

أو فى العام الماضى ـ نظرية أخرى . . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالفلسفة، أو فيما يتعلق بالتشريع . . . إلخ .

هذه النواحى كلها تجعلنا حذرين فيما يتعلق بالقسم الثقافى من الحضارة الحديثة، بل يجب أن نكون بعيدين عنه كل البعد، وأن نصدر عن ذاتية إسلامية، وعن مبادئ إسلامية، وعن قاعدة إسلامية، وعن جو إسلامى .

والنتيجة التى أريد أن أنتهى إليها من هذه المحاضرة، وهى الخاتمة، إنما هى العودة إلى الإسلام . .

العودة إلى الإسلام ـ ملاحظة وتجربة ، منهجاً وقوة مادية ـ :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(١) .

العودة إلى الإسلام من تسخير الأرض . . وتسخير السماء . . وتسخير ما بين الأرض والسماء . . وتسخير الكواكب، وتسخير الشمس والقمر . . وتسخير البحار والأنهار .

*** العودة إلى الإسلام أقوى ما تكون فى الجانب المادى.**

*** والعودة إلى الإسلام والاعتزاز بالإسلام أقوى ما يكونان فى الجانب الثقافى .. سواء اتصل ذلك بـ «العقيدة» أو اتصل ذلك بـ «التشريع» أو اتصل ذلك بـ «الأخلاق».**

* * *

(١) سورة الأنفال: ٦٠ .